تقاليد فرنسا في الشرق

نهج الجنرال سراي المفوّض الفرنسوي السامي في الديار الشامية منهجاً سنّاه بعضهم « خروجاً على تقاليد فرنسا في الشرق » . وقد رأينا بهذه المناسبة أن نشير الى فصل كتبه الاديب الكبير المرحوم علي كمال بك في جريدة (اقدام) التركية في أواخر سنة ١٣٣٠ (١٩١٢) ، ومما جاء فيه أن الصحف الفرنسوية تبني هذه التقاليد على اتفاقات سياسية وعهود عقدت فيما بين الدولة العثمانية وفرنسا منذ عهد السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأوّل . واذا أمعنا النظر في الظروف التي عقدت فيها تلك المعاهدة بين هذين الملكين نجد أن الملك فرنسوا بعد أن غلبه الامبراطور شارلكان عام ١٥٢٥ أصبح سجينا قانطاً ففكر في الاستنجاد بالسلطان سليمان القانوني ، فأرسل اليه خاتمه سراً ، وكانت نتيجة ذلك تلبية السلطان سليمان دعوة الاستنجاد وانعقاد الروابط بين البلادين ومجيء أول سفير فرنسوي الى تركيا . وأنت ترى أن السفارة الفرنسوية في الشرق الادنى لم تؤسس على المعنى الذي تحاول الصحف الفرنسوية أن تفهمه من كلمة « تقاليد فرنسا في الشرق » ، بل الامر على عكس ذلك تماما ، حتى قال أحد المؤرخين الغربيين :

« اذا رجعنا الى الحقيقة التاريخية يتبين لنا أن أول سفارة فرنسوية الى القسطنطينية انما جاءت لتحريض الدولة العثمانية على تجييش الجيوش العثمانية الى بلاد المجر المسيحية ومحاربة امبراطور النمسا فرديننند والامبراطور شارلكان »

اذن فان فرنسا وملكها فرنسوا الاول لم يكن يخطر في بالهما يومئذ لا مسيحيو الشرق ولا مسيحيو الغرب ، وانما كان يهمهما قبل كل شيء الاستنجاد بجيش السلطان سليمان القانوني لانقاذ البلاد وملكها من عدوان شارلكان . وصار

ذلك سياسة تقليدية لفرنسا فيما بعد ، حيث عادت الى الاستمداد من العثمانيين على عهد لويس الرابع عشر . قال لا مارتين :

« لقد برهنت فرنسا على دهاء سياسي بالاتفاق الذي عقدته مع الدولة العثمانية ، واعتبارها العضد الاقوى للاحتفاظ بكيانها كلما حاول الفاتحون اقتحام حدودها ، سواء كان هذا الاقتحام من الجانب الالماني أو من الجانب الاسباني أو من الجانب الروسي »

أجل ان العثمانيين حاصروا مدينة فينّة بتحريض فرنسا بعد حادثة فرانسوا الاول بنحو قرن ونصف قرن ، حيث كان لويس الرابع عشر — الذي يلقبه التاريخ الفرنسوي بالشمس — يسعى جهده لمنع سوبيسكي ملك پولونيا من امداد النمسويين في فينّة

ولما سارعت الدولة العثمانية الى مساعدة فرانسوا الاول على شارلكان بأسطولها المقود لواؤه لخير الدين باشا المعروف عند الاوربيين باسم (باربارس) كان الفرنسويون يصفقون له في مرفأ مرسيليا ويهتفون باسمه بينما كان المجلس الالماني العامّ (دييت جرمانيك) يعلن « ان العثمانيين والفرنسويين هم أعداء المسيحية على السواء »

ان المعاهدة الاولى التي حضر السفير الفرنسوي (لافوره) الى بغداد ليجتمع بالسلطان سليمان القانوني عند عودته من حرب ايران ويرجوه الموافقة عليها ليس فيها مادة واحدة تشير الى حماية المسيحيين في الشرق . وكذلك المعاهدة التي عقدت بين الدولتين في أدرنة عام ١٦٧٣ ، والمعاهدة التي عقدت بعد صلح بلغراد ، كلاهما خاصتان بالامتيازات الاجنبية وافراد من القسس يعدون على الاصابع

ثم استعرض علي كمال بك جميع المعاهدات المعقودة بين الدولتين وقال : اننا لم نجد قط معاهدة واحدة تدل على شيء من المعنى الذي يذكرونه